حياة العُباد في مصر من عصر الولاة وحتى نهاية الدولة الأيوبية

كانت مصر التي فتحت على يد عمرو بن العاص سنة (٢١هـ/ ٦٤١-٦٤٢م) أقرب الأمصار إلى القيم الروحية الإسلامية، فيلاحظ أنها كانت ذات تاريخ متصل من التزهد منذ أيام الفراعنة، فمن المعروف أن الديانة المصرية القديمة كانت تطمح إلى السعادة الأخروية وتقلل من قيمة الحياة الدنيوية، وكان الكهنة المصريون القدماء يمثلون الزهاد والصوفية في مفهومنا الاصطلاحي، وكانت طبقاتهم تتفاوت في القرب والبعد عن الإله من حيث القدرة على التلقي عنه والاستيحاء منه والفهم لإشاراته وعباراته وحركاته داخل المعابد على الخصوص، وكان الكهنة يستمدون ألقابهم من ممارساتهم ومنازلهم الدينية فكان الاسم المصري الدائم للكهنة هو الخادم ثم أصبح بعد ذلك "حم نتر" أي خادم الإله، وكانت كلمة "وعب" تعني الطاهر أو النقي وهي تذكرنا بالتصفية والصفاء اللتين اتصف بهما مدلول التصوف الإسلامي، كما كان لبعض الكهنة ألقاب تترجم بأبي الإله ومحبوب الإله وهذا ما يقابل عندنا أولياء الله الصالحين، والمصطفين والأخيار وغيرها الكثير من الألقاب التي تعبر عن قرب العُباد إلى الله[١]، ومارس الكهنة المصريون نوعًا من تقاليد التكريس أو إلباس الخرقة كما فعل الصوفية فيحكى عنهم أن كاهنًا جديدًا استحم في البحيرة المقدسة في الكرنك وتطهر عن طريق النطرون،كما كان للكهنة زي خاص يدل على الزهد ويباعد البدع الخاصة باللباس وكانوا يحلقون رؤوسهم بسبب الميل إلى الطهارة الخالصة كما كانوا وخاصة الصغار منهم يرتدون لباسًا مادته من الصوف[٢]، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر رجل مؤمن من قوم فرعون في قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[٣]، فعلى نفس النسق من التذكر بالله والتخويف منه كان مؤمن آل فرعون يعظ قومه، وقد كان حوار ذلك الرجل المؤمن دليلاً على درجة من الرقي الديني والأخلاقي لا تتوفر إلا للصفوة من الزهاد العابدين[٤]، وكذلك امرأة فرعون، التي جعلها الله مثلاً لكل المؤمنين، في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

وحين اتخذت مصر المسيحية دينًا لها، لم تغير شيئًا من نزعتها الزهدية، بل زادت ظاهرة الزهد فيها شدة وقوة وأقرتها وأضافت إليها عناصر جديدة، بحيث غدت مصر في العصور المسيحية الأولى مهد الرهبانية[٦]، ويذكر

---

(١) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٦، ص١٦٠/١٦١. وأيضًا ادولف أرمان: ديانة مصر القديمة ،ص٢٠٩.

(٢) ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ص ١٤٠ ، ٢١١.

(٣) قرآن كريم: سورة غافر آية ٢٨.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر فى القرآن والسنة، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٩، ص ١٦٠؛ أحمد صبحي منصور، مصر فى القرآن الكريم، مكتبة الأسرة، ١٩٩٠، ص ٧٥.

(٥) قرآن كريم: سورة التحريم. آية ١١.

(٦) الرهبانية أصلها من الرهبة أى الخوف يقال رهب يرهب رهبة أى خاف والراهب هو المتعبد في صومعته الذي يتخلى طواعية عن الانشغال بالدنيا وملاذها معتزلاً أهلها. الفيروز آبادى مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، جـ١، ط٢، مطبعة الحلبى،

المؤرخون أن مصر النصرانية هي مهد الحياة الرهبانية في العالم ذاكرين أن الرهبانية القبطية المصرية هي أساس الرهبانية في العالم المسيحي كله، وهي السائدة في كل أديرة النصارى، فالرهبانية كنظام حياة بدأ يستهوي نفوس النصارى في مصر منذ القرن الثالث الميلادي ثم توطدت نظمه وتقاليده وطقوسه على أيدي الرهبان الأوائل الذين آثروا حياة العزلة والتبتل[١]، ويعد القديس أنطونيوس (٢٥١-٣٥٦م) المؤسس الأول للرهبانية النصرانية بما كانت تمارسه من تقاليد ونظم وتتبناه من ثقافة تتصل بهذا الطراز من الحياة الدينية الذي دانت به جماعة من الرهبان أطلق عليها وصف "أباء الصحراء، وعرف الرهبان المصريون معنى الفناء في التصوف فكانوا عند تكريسهم، يرتدون لباسًا مادته من الكتان أطلقوا عليه اسم "رداء الخلود" لخلوه من العنصر الحيواني الذي هو رمز الموت، ثم كانوا يخلعونه بعد إتمام المراسيم ليلبسوا لباسًا من الصوف يضفي عليهم طابع الموت الرمزي أو الفناء في المسيح[٢].

وقد أشاد النص القرآني في سورة الحديد بسمو الرهبانية المسيحية في أيامها الأولى والتي كانت تعني في مضامينها الانقطاع للعبادة كما أوضح في الوقت نفسه رفضه إلى ما انتهت إليه من مغالاة أفرادها وخروجها عن جوهرها[٣] في قوله تعالى: ﴿ ﴾ [ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[٤]، وفي سورة قرآنية للرهبان النصارى قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٥].

أولاً: حياة العُباد في مصر في عصر الولاة

أهمل المؤرخون وأصحاب السير الإشارة إلى زهاد مصر الأوائل، كما أغفل المستشرقون الحديث عن مدرسة للزهد أسست في مصر خلال القرنين (١-٢هـ/ ٧-٨م) فشحت الأخبار وتقلصت النصوص التي تحدد ملامح الزهد

مصر، ١٩٥٣م. وهي نظام تعبدي يختص بأفراد أو جماعات من الناس تشتهي الدرجات العليا لحياة الكمال وتحققها بالاعتزال عن ضوضاء الحياة العامة لتنعم بالهدوء الذي يتيح لها التأمل وفحص الضمير ومحاسبة النفس والتفرغ الكامل للعبادة. ماهر يونان: الطوائف المسيحية في مصر، تقديم ومراجعة القس جرجس صبرى، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٦٥.

(١) زكى شنودة: موسوعة تاريخ الأقباط، جـ١، ط٢، ١٩٦٨، ص١٨١، ٢٣١؛ منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة المحبة، ص٧٠.

(٢) فكرى محمد عبد الحميد: زي الرهبان على رسوم الفريسكو في الكنيسة المصرية بعد الفتح الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم الآثار، ١٩٩٤، ص١٦٤.

وقد كعف كثير من الباحثين على دراسة أوجه الشبه بين حياة الزهاد والمتصوفة وما يقابلها في حياة الرهبان المسيحين من حيث طرق العبادة وموقعها ومنشآتها وحياتهم اليومية من مأكل ومشرب. انظر ناهد حمدي: دراسة في حياة الصوفية والرهبان من واقع وثائق ومصادر العصور الوسطى، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠.

(٣) أميمة بنت أحمد الجلاهمة: الرهبانية النصرانية دراسة نقدية في ضوء الإسلام، مجلة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد ٤٥، ذو القعدة ١٤٢٩ هـ، ص١٧٢.

(٤) قرآن كريم: سورة الحديد آية ٢٦.

(٥) قرآن كريم:سورة المائدة آية ٨١.

المصري في هذه الفترة، ويبدو أن هذه المدرسة كان اعتمادها علي القرآن والسنة كمدرسة المدينة[١]، فقد أصبحت مصر منذ الفتح الإسلامي لها مركزًا علميًا، ولم تكن الحركة العلمية في بداية عصر الولاة فلسفية ولا دنيوية، وإنما اعتمدت أساسًا على الدين، ونهض بهذه الحركة في بادئ الأمر الصحابة الذين وفدوا إلى مصر أثناء الفتح الإسلامي وبعده، ومن أشهر الصحابة الذين نزلوا مصر بعد الفتح عبد الله بن عمرو بن العاص، والذي يعد بحق مؤسس مدرسة مصر للزهد ومُعلمها الأول، وأخذ عنه الكثير من أهل مصر، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث، ويقول المقريزي " أن أهل مصر كانوا يتبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما"[٢]، ويذكر من زهاد مصر في القرن (١هـ/ ٧م) سليم بن عنتر التجيبى ذكره الكندي في كتابه الولاة والقضاة فقال " كان عابدًا زاهدًا يختم القرآن في الليلة ثلاث مرات وصدق فيه قول الله تعالى"كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ"[٣]، وأبرز زهاد مصر في القرن (٢هـ/ ٨م) كان الليث بن سعد فقد اشتهر بالزهد والنسك كان من الكُرماء الأجواد، وقد طاف في كثير من البلدان لأخذ العلم فرحل إلى مكة وبيت المقدس وبغداد ولقي تسعة وخمسين تابعًا حدث عنهم واشتهر بعلمه الواسع في تاريخ مصر[٤]، وبظهور ذي النون المصري في أواخر القرن الثاني الهجري (٢هـ/ ٨م)، عرفت مصر نزعة صوفية لها شعائرها وتقاليدها، وتطور الأمر فى القرن (٣هـ/٩م) الذى يحتل مكاناً فريداً من تاريخ التصوف الإسلامي كما سبق توضيحه، ويعد ذو النون المصري أحد أقطاب الصوفية ومؤسسها في مصر، وله فضل كبير في وضع كثير من تعاليم الصوفية فهو أول من تكلم في الأحوال ومقامات أهل الولاية ويصفه عبد الرحمن الجامى في نفحات الأنس بأنه رأس طائفة الصوفية فقد استطاع أن يؤسس أصول المعرفة والمحبة وكان أثره بعيدًا في معاصريه ومن أتى بعده، وقد أنكر عليه بعض أهل مصر ما جاء به من تعاليم الصوفية ورموه بالزندقة وقالوا "أحدث علمًا لم تتكلم فيه الصحابة" وسعوا به لدى الخليفة العباسي المتوكل فأحضروه من مصر فلما

---

(١) التفازانى: مدخل إلى التصوف، ص٨. و كامل مصطفى الشيبى: الصلة بين التصوف والتشيع، ج١، ص٣٦١.

(٢) محمود محمد الحويرى: مصر في العصور الوسطى من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني، الطبعة الثانية، المكتب المصري، ٢٠٠٢م، ص٩٠. والمقريزي: الخطط، جـ٤، ص٣٦٣. وقد ذكر السيوطي الصحابة الذين دخلوا مصر، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص١٣٨: ١٥٢.

وعبد الله بن عمرو بن العاص بن أوائل أبو محمد السهمى كان من خيار الصحابة وعلمائهم وعبادهم، أسلم قبل أبيه، ولم يكن يصغر أبيه إلا باثنى عشر سنة كان يقوم الليل ويصوم يومًا ويفطر يومًا وقبل أنه بكى حتى عمي، ولأهل مصر عنه قرابة مائة حديث واستأذن النبي في أن يكتب عنه فأذن له وقال أبو هريرة ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب، وقال حفظت عن النبي ألف مثل وتوفي مصر سنة (٦٥ هـ/ ٦٤٨م) ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة، تحقيق على محمد وعادل أحمد، جـ٣، دار الكتب العلمية، ص٢٣٣.

(٣) القرآن الكريم: الذاريات آية ١٧ والكندي أبى عمر محمد: الولاة والقضاة، تحقيق، رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ ص٣٠٦: ٣٠٨. سليم بن عنتر التجيبى المصرى أبو سلمة قاضى مصر من الطبقة الأولى من التابعين كان يسمى الناسك لكثرة فضله وشدة عبادته وهو أول من قص بمصر سنة (٣٠ هـ/ ٦٥٠م) وتولى القضاء سنة (٤٠ هـ/ ٦٦٠م) وأقام فى القضاء عشرين سنة وهو أول من أسجل بمصر سجلاً في المواريث مات بدمياط (٧٥هـ/ ٦٥٠م).

(٤) سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٣١٨. الليث بن سعد أبو الحارث الليث ولد بمصر بقرية قلقشندة إحدى قرى القليوبية (٩٤ هـ/ ٧١٢م) ولقب بإمام أهل مصر في الفقه والحديث توفي سنة (١٧٥ هـ/ ٧٩١م) وقبره موقع على خريطة آثار القاهرة في المربع ١٣.

دخل عليه في سامراء، وعظه فبكى المتوكل ورده مكرمًا[1].

١- ظهور الصوفية في تاريخ مصر الإسلامية

ظهرت الصوفية لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية كجماعة في بداية القرن ٣هـ/ ٩م حيث وجد بمصر، ولاسيما الإسكندرية طائفة عرفوا بالصوفية، وكانوا يدعون إلى المعروف والنهي عن المنكر، شاركت في الاضطرابات السياسية والثورات التي كانت بمصر في ذلك الوقت، ففي الثورة التي عرفت بثورة الجروي والسرى بن الحكم والتي استمرت من سنة (١٩٩هـ/ ٨١٤م) حتى سنة (٢١١هـ/ ٨٢٦م) واستطاع أبو عبد الرحمن الصوفي[2]، رئيس طائفة الصوفية أن يغتصب ولاية الإسكندرية سنة (٢٠٠هـ/ ٨١٥م) بمساعدة طائفة من الأندلسيين، كما ساعدتهم قبائل لخم المحيطة بالبلد، وبعد ذلك عزل الأندلسيون هذا الوالى الصوفي وتولى واحد منهم، وفي ذلك يقول المقريزي والكندي "ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف، ويعارضون السلطان في أموره، فترأس عليهم رجل منهم، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي، فصاروا مع الأندلسيين يدًا واحدة واعتضدوا بلخم، وكانت لخم أعز من ناحية الإسكندرية)[3].

وجاء ذكر الصوفية مرة أخرى بالمصادر التاريخية كطائفة لها كيان يستطيع التدخل في شئون المجتمع ويؤثر في تاريخ مصر الإسلامية في واقعة يحدثنا عنها الكندي في كتابه الولاه وابن حجر في كتابه رفع الأصر فيقولان "كانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وكان عيسى بن المنكدر منهم، فلما ولي،

---

(١) محمد كمال حسين: أدب مصر الإسلامية عصر الولاة، الطبعة الثانية، دار الفكر العربى، ص٦٥: ٦٧ الجامى: نفحات الأنس ٢٦: ٣٠ ذو النون المصرى ثوبان بن إبراهيم النوبى الاخميمى وهى نسبة إلى أخميم بلدة من ديار مصر بالصعيد شيخ الديار المصرية روي عن مالك والليث وابن لهيعة وآخرين وكان عالمًا فصيحًا حكيمًا توفي في ذي القعدة سنة (٢٤٥ هـ/ ٨٦٠م) وكان في التسعين من عمره كان مدار الكلام عنده على أربع حب الخليل، وبعض القليل، واتباع التنزيل وخوف التحويل (الذهبى) الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ: سير أعلام النبلاء،تحقيق: شعيب الأرناؤوط محمد نعيم، جـ١١، الطبعة التاسعة، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢، ص٥٣٢: ص٥٦٣ دفن فى القرافة الصغرى وقبره موقع على خريطة آثار القاهرة فى المربع ١٤ ز شمال غرب مسجد سيدى عقبة أثر رقم ٥٣٥. ، والمتوكل هو أبو الفضل جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد الخليفة العباسي العاشر بويع سنة (٢٣٢ هـ- ٨٤٦م) وقتل سنة (٢٤٧هـ- ٨٦١م) وقد بلغ من العمر إحدى وأربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر .المعارف: ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم الدينورى) (٢١٣ – ٢٧٦هـ). تحقيق: ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف، ص ١٣٥.

(٢) حاولت كل من أسرة السرى بن عبد الحكم وعبد العزيز الجروى الاستئثار بالسلطة في مصر سنة (١٩٩هـ/ ٨١٤م) حيث سيطر الجروى على العاصمة فى الصعيد بينما سيطر السرى على تنيس وشرقى الدلتا، كذلك استولى الأندلسيون على الإسكندرية وأصبح فى مصر ثلاث قوى تتنازع على السلطة ولم تستطع أي منها السيطرة الكاملة على مصر. المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٦٧، ٤٦٨، ابن الجروى (٠٠٠-٢١٥هـ) / (٠٠٠-٨٣٠م) على بن عبد العزيز بن الوزير الجروى أحد القادة الشجعان بمصر كان أبوه قد ثار على السرى بن الحكم والى مصر ومات محاصرًا الإسكندرية، فخلفه سنة (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) وحارب عبيد الله ابن السرى بعد موت السرى. الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٤، ص٣٠٠. أما السرى فهو السرى بن الحكم بن يوسف أمير من الولاة أصله من خرسان وولى مصر سنة (٢٠٠هـ/ ٨١٥م) فأقام ستة أشهر وثار عليه بعض الجند فخلعوه ولكن أعاده المأمون إلى الولاية فى السنة نفسها وأقام في ولايته إلى أن توفي بالفسطاط في (٢٠٥ هـ/ ٨٢٠م) (الريعى) محمد بن عبد الله ت ٣٩٧هـ: مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق عبد الله أحمد، جـ٢، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٠هـ، ص٤٥٧. عبد الرحمن الصوفى: شيخ زاهد من بلدة بلخ توفى سنة (٢٣٧ هـ/ ٨٥١م).

(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٦٧. والكندى: الولاة والقضاة، ص٤٤٢.

القضاء كانت تأتيه وهو في مجلس محكمة فتقول: أيها القاضي ذهب الإسلام فُعل كذا وكذا، فيترك مجلس الحكم ويمضى معهم، فإذا لامة إخوانه قال: لابد من القيام لله عز وجل بحقوقه، وجاءوه يومًا لكي يبلغ أمير المؤمنين المأمون رفضهم تعيين أخاه واليًا علي مصر فقالوا:" أن أمير المؤمنين المأمون قد ولى أخيه أبا إسحاق بن الرشيد مصر وأن نخافه ونخشى أن يشد على يد أهل العدوان فاكتب لنا كتابًا إلى المأمون بأنك لا ترضى بولايته، ففعل ذلك ابن المنكدر وبلغ الكتاب للمأمون"، فاحضر أبا اسحاق فقال: ما الذي فعلت في أهل مصر[1]، فقال ما فعلت فيهم شيئًا فقال: هذا كتاب قاضيهم يزعم أنه لا يرضى بولايتك عليهم، فقال: ما أسأت إلى واحد منهم ولا فعلن بابن المنكدر وافعلن، فعزله وأمره بحبسه"، وهذا يدلنا على أن الصوفية أصبح لهم مكانة وعصبة في مصر في الفترة ما بين سنتي (٢١١ هـ- ٢١٤م /٨٢٦م- ٨٢٩م) وهي فترة تولى عيسى بن المنكدر قضاء مصر[2].

ثانيًا: حياة العُباد في مصر في عهد الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٥م)

كان قيام الدولة الطولونية حدًّا فاصلاً بين نظام الولاية القائم على التغير والاضطراب، والذي استمر في مصر قرابة قرنين ونصف، وبين نظام الولاية القائم على الوراثة في الأسرة الطولونية التي يعتبر عهدها أول عهد الاستقلال الحقيقي في تاريخ مصر الإسلامية في العصور الوسطى[3]، وقد أثنى المؤرخون على أحمد بن طولون (٢٢٠-٢٧٠ هـ/ ٨٣٥-٨٨٤م) مؤسس الدولة الطولونية وأشاد بنشأته وفضائله فيقول ابن خلدون "سار أحمد بن طولون إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر وإقامة الحق فأنس، وعكف على طلب الحديث، ثم رجع إلى بغداد وقد امتلأ علمًا ودينًا"[4]، وقال عنه المقريزي "وكان قد نشأ نشوءًا جميلاً وطلب الحديث، وأحب الغزو وخرج إلى طرسوس مرات ولقى شيوخ المحدثين وسمع عنهم، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة،

---

(١) مستندين رأيهم لقول المقريزى "عمل هذا الدار سعيد السعداء" برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة تسع وخمسمائة ... فكانت أول حانقاة عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية".

(٢) الكندى: الولاة والقضاه، ص٤٤٠. (وابن حجر العسقلانى) شهاب الدين أحمد ت ٨٥٢هـ: رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق على عمر محمد، الطبعة الأولى، مكتبة الخانكى، ١٩٨٨، ص٢٩٨.
عيسى بن المنكدر بن محمد بن المنكدر القاضى أبو الفضل التيمى المدنى الأصل، المصرى، ولى قضاء مصر سنة (٢١١هـ/ ٨٢٦م) وعزل منه سنة (٢١٤هـ/ ٨٢٩م) ونقل إلى العراق سنة (٢١٥ هـ/ ٨٣٠م) وسجن هناك حتى مات (الضبى البغدادى) أبو بكر محمد الملقب بوكيع ت ٣٠٦ هـ: أخبار القضاه، تحقيق عبد العزيز المراغى، جـ٣، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية، ١٩٤٧م، ص٣٢٥، ٣٢٦. والمأمون هو أبو العباس عبد الله المأمون بويع للخلافة سنة (١٩٨ هـ/ ٨١٣م) وكان مولده بالياسرية فى (١٧٠ هـ/ ٧٨٦م) وتوفى بالبذندون سنة (٢١٨ هـ/ ٨٣٣م) ودفن بطرسوس فكانت خلافته عشرين سنة (ابن عبد ربه الأندلسى) أحمد بن محمد: العقد الفريد، تحقيق مفيد قميحة، جـ٢، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية. ١٩٨٣، ص٤٥. وأمير المؤمنين أبو إسحاق بن هارون الرشيد ولد سنة (١٨٠ هـ/ ٧٩٦م) وبويع عبد المأمون سنة (٢١٨ هـ- ٨٣٣م) وكانت خلافته ثمانية أعوام وثمانية أشهر (الذهبى) شمس الدين محمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، تحقيق عمر عبد السلام، ج ١٦، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٩٣.

(٣) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٠٨.

(٤) بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، جـ٤، ص٣٨٦، وطرسوس بفتح أوله وثانية وسنيين مهملتين بينهما واو ساكنة كلمة عجمية مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم وكانت موطناً للصالحين والزهاد لأنها من ثغور المسلمين الحموى: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨.

وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بآدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله"[١]، وقد كان لهذه النشأة أبلغ الأثر في شخصيته وطريقة حكمه فيروى أبو المحاسن في النجوم الزاهرة أنه جعل مطابخ للفقراء والمساكين في كل يوم "يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس، وكان في الغالب يعمل سماطًا عظيمًا وينادي في مصر: من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر، ويجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك، ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم ويحمد الله على نعمته، ثم جعل بالقرب من قصره حجرة فيها رجال سماهم بالمكبرين عدتهم أثنا عشر رجلاً، يبيت في كل ليلة منهم أربعة يتعاقبون بالليل نوبًا، يكبرون ويهللون ويسبحون من أطيب الناس صوتًا"[٢]، وكان مشغوفًا بمجالسه الفقهاء، وأهل العلم، وبلغ به ولعه بالحديث وسماعه وروايته أنه كان ينتقل إلى مجلس القاضي بكار بن قتيبة [٣] طلبًا للمزيد، وقد شجع الطولونيون بوجه عام رجال الدين ولم يقتصر اهتمامه على العلماء المقيمين بمصر بل امتد إلى العلماء الغرباء الوافدين وأوقف بن طولون عليهم أوقافًا يستعينون بها على العيش فأصبحت مصر قبلة للعلماء والذين كان منهم أئمة التصوف منهم أبو بكر الزقاق الكبير من أكابر شيوخ مصر [٤] ،وأيضًا بنان الحمال[٥] وغيرهم ممن يعتبرون مؤسسين للتصوف، وكان قرب أحمد بن طولون من هؤلاء العُباد دافعًا قويًا لكى يفكر لهم في أماكن للتعبد يخصص لها أوقافًا ليضمن لهم الرعاية وبذلك يكون أول من خصص للعُباد مكانًا يسكنونه ويقيمون فيه وجرى عليه أوقافًا في مصر(مساجد الاعتكاف).

أحمد بن طولون يضع النواة الأولى لمنشآت العُباد فى مصر.

أ – مسجد التنور

بناه أحمد بن طولون بأعلى جبل المقطم فى صفر سنة (٢٥٩ هـ/ ٨٧٢م) وجعل له منارة وصهريجًا فيه ماء وكان ينفق عليه من وقف البيمارستان العتيق والعين بالمعافر وبلغ حبسه على الثلاث منشآت(المسجد والبيمارستان والعين) في سنة (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) ستون ألف دينار، ويقول المقريزى "وفيه من يقيم به" أى أن العُباد أقاموا فى هذا المسجد، وكذلك ذكره الإدريسى فقال " كان لابن طولون أيضًا جامع آخر بناه في القرافة وهو مكان سكنه المُتعبدون وجمل من أهل الخير والعفاف"[٦] وبذلك يكون مسجد التنور أول منشأة خصصت للعُّباد يسكنون ويعتكفون فيه

---

(١) (المقريزى) تقى الدين أحمد ت ٨٤٥ هـ: المقفى، تحقيق محمد البعلاوى، جـ١، المغرب الإسلامى، ١٩٩١م، ص٤١٨.

(٢) (أبو المحاسن) جمال الدين بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٣، ص٢٢.

(٣) بكار بن قتيبة هو القاضى أبو بكر بكار بن قتيبة كانت ولادته فى البصرة، سنة (١٨٢ هـ/ ٧٩٨م) وتوفى بمصر سنة (٢٧٠ هـ/ ٨٨٣م) وقبره بالقرب من قبر ابن طباطبا عند مصلى بنى مسكين، وتولى القضاء سنة (٢٤٦ هـ/ ٨٦٠م) وبقى عليه حتى مات ا بن خلكان: وفيات الاعيان، جـ١، ص٢٨٠.

(٤) حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، دار الفكر العربي، ص١١٨.احمد بن نصر أبو بكر الزقاق نسبه إلى بيع الزق وعمله(أواني تستخدم للشرب) من أهل المجاهدات توفي(٢٩٠هـ/٩٠٢م) وقيل عندما مات انقطعت حجة الفقراء في دخولهم مصر ابن الملقن: طبقات ،ج١،ص٢٨٠.

(٥) بنان الحمال بن حمدان الواسطى توفي في رمضان سنة (٣١٦ هـ/ ٩٢٨م) (ابن عماد) شهاب الدين بن أحمد (١٠٣٢– ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، ج ٤، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، بيروت، دمشق، ١٩٨٩م، ص٧٦: ٧٨.

(٦) المقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٢٨٢، والإدريسى: نزهة المشتاق، ص ١٤٨.

للعبادة.

ب - الجامع الطولونى

بدأ أحمد بن طولون في بنائه سنة (٢٦٣ هـ/ ٨٧٦م) وانتهى منه سنة (٢٦٥ هـ/ ٨٧٩م) وحدثنا عنه ابن جبير فيقول "وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يدًا لأحد عليهم فقدموا من أنفسهم حاكمًا يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارى أمورهم عنده، وتفرغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله"[١]، وبذلك يكون الجامع الطولوني استخدم كسكن للعباد يقيمون فيه حلقات ذكرهم متعكفين بداخله مستقلين بأمورهم مولين عليهم شيخهم.

ثالثاً: حياة العباد في مصر في عهد الدولة الإخشيدية (٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٥-٩٦٩م)

تنسب الدولة الإخشيدية إلى محمد بن طغج الأخشيد[٢] (٢٦٨- ٣٣٤هـ/ ٨٨١-٩٤٥م)، وبعد وفاته أصبح النفوذ المطلق لغلامه كافور الإخشيدى ولقب بالأستاذ فكان يقال "الأستاذ أبو المسك كافور ودعى له على المنابر إلى أن توفى سنة (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)[٣]، وازدادت الحياة الدينية في عهد الدولة الأخشيدية في مصر قوة وازدهارًا فكان الأمراء الأخشيديون متدينيين يعطفون على العباد الزهاد والفقهاء ويسدون إليهم كثيرًا من العطايا، ويمدون إليهم يد العون، فكان الأخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويتقبل دعاءهم ويتبرك بحديثهم ومنهم رجل في القرافة عرف باسم ابن المسبب وآخر اسمه أبو سليمان بن يونس، وكان لا يتأخر عن صلاة الجمعة في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ويحضر ختم القرآن والدعاء، وقد دعته جارته يومًا إلى التكاسل عن حضور ختم القرآن فقال لها ويحك لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيكون دعاؤه اللهم اغفر لجماعتنا، فعسى أن أدخل فيهم، وكان يحب قراءة القرآن ويبكى عند سماعها[٤]، كما حظي الزهاد والعباد باهتمام كافور وعنايته البالغة، البالغة، فيحدثنا ابن خلكان "أن لكافور مع الشيخ عبد الله بن جابار الصوفى الزاهد شيخ البقاعى، وكان من كبار المشايخ قصة عجيبة ، فقد أرسل كافور رسوله بصره بها مائة دينار إلى منزل الشيخ بظاهر القرافة فرفضها ابن جابار وقال للرسول نحن رعيته ونحن نحبه فى الله تعالى وما نفسد هذا بعلة"، فرجع الرسول إلى كافور وأخبره فقال: نعم هو بذلك جدير، لم يجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم فعد إليه واستفتح واقرأ (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) ابن جبير(محمد بن أحمد الأندلسى) ت٦١٤ هـ: رحلة بن جبير: الطبعة الأولى، دار بيروت، ٢٠١٠م، ص٢٦، ٢٧.

(٢) أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن خاقان الفرغانى التركى كانت ولايته الأولى بمصر سنة (٣٢١هـ/ ٩٣٥م) ودامت ٣٢ يوماً ولم يدخل مصر فيها، أما ولايته الثانية كانت (٣٢٣ هـ: إلى وفاته) وأضيف إليه فيها دمشق من قبل الراضى (الخليفة العباسى العشرون ولد سنة (٢٩٧ هـ/ ٩٠٩م) وحكم من (٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م: ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠م) والأخشيد تعنى ملك الملوك توفى بدمشق ودفن ببيت المقدس ودفن بجوار أولاده أنجور وعلى. الذهبى: سير أعلام النبلاء ، جـ ١٥، ص٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيدين، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٠، ص١١١: ١٢٥.

(٤) (ابن سعيد) على بن موسى المغربى ت ٨٦٥م: المغرب فى حلى المغرب، نشره وعلق عليه زكى محمد حسن وآخرون، جـ ١، القسم الخاص بمصر، الطبعة الأولى، مبطعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣، ص١٨٤، ١٨٥.

الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلاَ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) يا ابن جابار ومن كافور العبد الأسود ومن مولاه ومن الخلق أبقى لأحد مع الله تعالى ملكة أو شركة تلاشى الناس كلهم، ها هنا تدرى من معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت هو أرسل إليك، ما تفرق بين السبب والمسبب، وعندما سمع ابن جابار هذا بكى وأخذ الصرة وقال: علمنا الأستاذ كيف التصوف، قل له أحسن الله جزاءك، فسر بذلك كافور وسجد شكرًا لله،[1] كما يعكس مسجد الفقاعي الذي بناه كافور الإخشيدي تخليدًا للشيخ أبو الحسن على بن أبى الحسن المعروف بابن الفقاعى مدى درجة ارتباطه بهم، ومن أشهر عُباد هذا العصر أبو الحسن على بن محمد بن سهل الدينورى توفى بمصر سنة (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) وأبو الخير الأقطع المعروف بالتيناتى توفى سنة (٣٤٣هـ/ ٩٥٤م) وأبو على الحسن بن أحمد الكاتب المصرى توفى سنة (٣٤٣هـ/ ٩٥٤م)[2]، وثمة ظاهرة غريبة انتشرت في هذا العصر وهي اختصاص هؤلاء الزهاد بشيء يعرف بالكرامات فيقول السيوطي عن الدينورى أنه كان يصلي بالصحراء في شدة الحر ونسر قد نشر جناحيه يظلله من الحر، وأن السباع كانت تأنس بالتيناني، ووصل الأمر لدرجة أن رجلاً ادعى أن يده كانت مقطوعة، وأنها كانت عند أهله وعادت صحيحة وهو في المسجد يتعبد، فأفتن الناس به وكثر القول فيه فأحضره الأخشيد وسأله عن قصته فقال: رأيت فى النوم كأن سقف المسجد قد انفتح ونزل إلى منه ثلاث أنفس: النبي وجبريل وعلىّ عليهم السلام فسألت النبي رد يدى فردها إلى وانتبهت وقد عادت، فأوصله الأخشيد إليه وأكبره واستعظم قدرة الله تعالى فيه وبعد فترة طويلة كذبة، وربما ألصقت هذه الكرامات والخرافات بهؤلاء المتعبدين وغيرهم من الصوفية لإثبات صوفيتهم، فلا يقبل الصوفي إلا بما يروى عن كراماته[3].

رابعًا: حياة العُباد في مصر في عهد الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م)

أسس الفاطميون دولة مستقلة، لم ترتبط بالخلافة العباسية بأية صورة، بل أصبحت مصر دار الخلافة، تقف على قدم المساواة مع الخلافة العباسية فأوجدوا وضعًا سياسيًّا لم تألفه مصر الإسلامية من قبل، الأمر الذي جعل تاريخها في عصر الفاطميين يأخذ خطًّا متصلاً مستقلاً عن التيار العام لتاريخ المشرق الإسلامي، وانقسم حكم الخلافة الفاطمية إلى عصرين، ففي العصر الفاطمي الأول ومداه قرن من الزمن وينتهي في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله[4] حوالي سنة (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥م) بلغت الخلافة ذروة قوتها وازدهارها، وقفزت مصر إلى مركز الصدارة والقمة في العالم الإسلامي، ونافست القاهرة عاصمة الفاطميين بغداد حاضرة العباسيين ولكن

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٠٣؛ سيدة إسماعيل: مصر في عصر الأخشيدين، ص ١٣٦: ١٣٧.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة، ج .١، ص ٢٩٣.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢٩٣؛ سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في عصر الإخشدين، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) المستنصر بالله: أبو تميم معد بن الظاهر على بن الحاكم منصور بن العزيز بويع للخلافة بعد موت أبيه سنة (٤٢٧ هـ/ ١٠٣٦م) وعمره يومها سبع سنين وسبعة وعشرون يومًا وبقي في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر إلى أن توفي سنة (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) وحدث في عهده غلاء عظيم ما عده مثله منذ زمان يوسف عليه السلام وأقام سبع سنين وأكل الناس بعضهم بعضًا وأكلوا الميتة والكلاب وافتقر المستنصر وبقي الأمر على شدته حتى جاء بدر الجمالي إلى مصر وتولى تدبير الأمور فانصلحت (بن تغرى بردى) يوسف الأتابكى ت ٨٧٤ هـ: مرد الطاقة فى من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد أحمد، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٨٠-٢٨٢.

أصابها الضعف والانحلال في عصرها الثاني المعروف بعصر نفوذ الوزراء، ويبدأ بمجئ أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا سنة (٤٦١ هـ/ ١٠٧٣م) إلى آخر الدولة الفاطمية، وفيه سيطر الوزراء على الأمور في الدولة وصار الخلفاء مسلوبي السلطة[١]، وقد حرص الفاطميون منذ اللحظة الأولى لقيام دولتهم في مصر على اكتساب أهلها واستمالتهم إليهم، فلم يدخلوها دخول الغزاة المنتقمين المستغلين، ويظهر ذلك واضحًا في كتاب الأمان الذي كتبه جوهر الصقلي إلى أهل مصر في (شعبان ٣٥٨ هـ/ يونيو ٩٦٨م)، يتعهد لهم فيه بالأمان التام الدائم على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وأن يجتهد ليعم الصلاح البلاد ويشملهم[٢]، وكانت الدولة الفاطمية دولة مذهبية تحمل البلاد التي تفتحها على التشيع، ولهذا لم يدخر الفاطميون وسعًا في نشر مذهبهم الإسماعيلي[٣]، إذا نشط دعاتهم في أنحاء البلاد يعقدون مجالس الحكمة التأويلية ويتكلفون الوسائل والأسباب فكانوا يتوسلون بالتصوف لنشر الفكر الشيعي الإسماعيلي بين جموع المصريين، وينبثون في مختلف أنحاء مصر، ويظهرون الزهد والورع والتقوى على طريقة الصوفية لجذب العامة إلى الشيعة، كما كان بعض الصوفية من دعاة الفاطميين، ولذلك وجد تقارب بين التصوف وتعاليم الإسماعيلية، فهم يعملون العقل لنشر مذهبهم وعقيدتهم فكان العقل عندهم طريقًا للوصول إلى المعرفة وإلى الله والتصوف من ناحيته يصل بالمريد عن طريق الذوق والرياضة إلى المعرفة وإلى الله[٤]، وعلى الرغم مما سبق فإنهم كانوا لا يصادرون أهل السنة في إقامة شعائرهم الدينية وفق مذهبهم، فشهدت مصر في مقابل التصوف الشيعى نشاطًا ملحوظًا في جانب التصوف السني، حمل لواءه عدد من الأعلام خدموا التصوف خدمة جليلة، ونهضوا بالتراث الروحي، حتى ضارع ما كان في العراق وبغداد خاصة.

ويتضح تطور التصوف في العصر الفاطمي في:

١ – إحداث نظام شيخ الصوفية لأول مرة في مصر فقد لقب محمد بن الحسين بن على الغزى المعروف بابن الترجمات بلقب أحد أعلام التصوف في هذا العصر"شيخ الصوفية" ولم نجد أحد سبقه ذكر هذا اللقب له، مما لعله نظام جديد اتُبع في مصر وهو اختيار شيخ للصوفية[٥]، و من أعلام التصوف في هذا العصر أبو القاسم

---

(١) محمود محمد الحويرى: مصر في العصور الوسطي، ص١٤٤،١٥٩.

(٢) عبد المنعم ماجد: خلافة دولة الفاطميين وسقوطها فى مصر، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٩٤. جوهر الصقلى القائد أبو الحسن جوهر المعروف بالكاتب كان من حوالي المعز بن المنصور بن المهدى صاحب إفريقية دخل مصر وأقام الدعوة للمعز وهو بانى القاهرة توفى سنة (٣٨١ هـ/ ٩٩١م) بمصر بن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٣٧٥: ٣٧٩.

(٣) الإسماعيلية فرقة من الشيعة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وترى أن الإمامة انتقلت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وترى أن الإمامة انتقلت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب ثم إلى ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم في بنى الحسين إلى جعفر الصادق، ويروى أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم إلى أبنائه حتى عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١، ص١٥٤، ١٥٥.

(٤) محمد كامل حسين: الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى أواخر الدولة الفاطمية، مطبعة مصر، ١٩٥٩، ص٧٢، ٧٣.

(٥) محمد عبد المنعم خفاجى: التراث الروحى للتصوف الإسلامي فى مصر، بدون تاريخ، ص٩٠، ٦١ والإمام الصالح بن الترجمان عاش خمس وتسعين سنة ومات سنة (٤٤٨هـ: ١٠٥٦م) ودفن بتربة ذى النون المصرى ابن عماد: شذرات الذهب ، جـ٣،ص١٧٨.

الصامت وأبو بكر الطرطوشي[1]. واستمر تيار التصوف وتطور طوال العصر الفاطمي، وربما يفسر لنا هذا التزامن بين كل من التصوف السني والشيعي، ما وصل إلينا من مزيج فكري يتضح في كتابات الصوفية سوءًا مؤلفاتهم أو على منشآتهم فقد جمعوا بين تقدير الصحابة وإجلالهم على مذهب أهل السنة وتقديس الأئمة على مذهب الشيعة.

٢- ظهور التصوف العلمي وإنشاء أماكن خاصة بالصوفية فقط لأول مرة في مصر تحت رعاية الفاطميين.

يقول الشاعر الأمير تميم:[2]

إذا كنت مصطفيًا مربعًا	فخص القرافة بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفا	ف مخصومة بالتقى والبهاء
كأن العبير لها تربة	تضوع فى صبحها والمساء
ويحيى النفوس بأرجائهن	رقيق النسيم وطيب الهواء
ديار أدير بهن النعيم	ومغنى كملتذ رجع الغناء
وينبه فيها النيام الأذان	إذا مزق الليل سيف الضياء
فمن ذاكرٍ ربه خشية	ومن مستهل بطول الدعاء[3]

ونستدل من هذه الأبيات أن الصوفية اتخذوا لهم بالقرافة مكانًا خاصًا عرف بهم يتعبدون فيه.

يقول المقريزي جدد الخليفة الآمر سنة (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) قصر القرافة[4] وعمل تحته مصطبة للصوفية وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم، والشموع الكثيرة تزهر، وقد بسط تحتهم حُصر من فوقها بسط ومدت لهم الأسمطة التي عليها كل نوع لذين وشهي

---

(١) أبو القاسم الصامت مات (٤٣٧ هـ/ ١٠٤٥م)، وقبره أحد مزرات القرافة السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٢٥٠ وأبو بكر الطرطوشى محمد بن الوليد الفهرى الأندلسى نزيل الإسكندرية والذي نشر العلم فيها وعليه تفعة أهلها وطرطوش مدينة بالأندلس، نشأت وعرف فيها بابن أبى رندقة توفى سنة (٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج ١٩ ، ٣٣٤.

(٢) الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ولد سنة (٣٣٧ هـ/ ٩٤٨م) في مدينة المهدية بتونس وقدم مصر في سن الخامس والعشرين وكان الابن الأكبر لأبيه ولكن كان فسد الخلق فصرف عنه ولاية العهد توفي (٣٧٥ هـ/ ٩٨٥م) ودفن مع أسرته في تربة الزعفران (مكانها الآن خان الخليلى) تميم بن المعز: ديوان الأمير تميم، تحقيق أحمد نجا، ومحمد النجار، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٩٥٧م، ص و: ف.

(٣) تميم بن المعز: ديوان الامير تميم، ص ٢٧. وكانت هذه الزيارة سبب في توبة الأمير من آثامه وفجوره وعودته إلى الله.

(٤) الآمر بأحكام الله أبو على المنصور بن المستقلى بويع للخلافة بعد موت أبيه فى (٤٩٥ هـ/ ١١٠٢م) وقبل سنة (٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م) بن تغرى بردى: مورد للطاقة فى من ولى السلطنة والخلافة، جـ١، ص٢٨٤: ٢٨٧، وقصر الأندلس بالقرافة بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز (٣٦٥: ٣٨٥ هـ/ ٩٧٦: ٩٩٦م) سنة (٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م) وتهدم بزوال الدولة فى (٥٦٧ هـ/ ١١٧١م) وكان من أحسن الآثار فى إتقان بنائه المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٥٨٠، مصطبة جمع مصاطب بناء يرتفع بمقدار واحد متر على شكل الدكة يتخذ مجلساً وكانت تفرش بالرخام ويراقب نظامها ونظافتها من قبل المحتسب وأعوانه وأطلق على نوع من القبور، وعرفت فيما بعد بالمكسلتين. عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٨٤.

من الأطعمة والحلوى أصنافًا مصنفة، وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهرى[١]، الواعظ، ومزق مرقعته، وفرقت على العادة خرقًا، وسأل الشيخ أبو إسحاق المعروف بالقارح المقرى خرقة منها ووضعها فى رأسه فلما فرع التمزيق قال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة: يا شيخ أبا اسحاق، قال لبيك يا مولانا، قال: أين خرقتى؟ فقال ها هى على رأسى، فاستحسن الآمر ذلك وأمر من أحضر من خزائن الكسوات وفرق على الحاضرين وعلى فقراء القرافة، ونثر عليهم ألف دينار، فتخاطفها الحاضرون"[٢]، ونستخلص من نص المقريزى نقطتين الأولى وجود منشآت خاصة بالصوفية دون غيرهم في مصر سنة (٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م) والثانية أن الصوفية بمصر بدأوا يقومون بحركات الراقصة التي عرفت في تاريخ التصوف بالتصوف العملي.

٣- بداية ظهور الطرق الصوفية وتربية المريدين حدثنا الشعرانى في طبقاته أن أبا عمر عثمان بن مرزوق القرشي انتهت إليه تربية المريدين الصادقين بمصر وأعمالها، وانعقد إجماع المشايخ عليه بالتعظيم، والتبجيل، والاحترام، وحكموه فيما اختلفوا فيه، ورجعوا إلى قوله[٣].

وهذا يدل على أن الصوفية بمصر في العصر الفاطمي كان لهم طرق منظمة وشيوخ يتعلم على أيديهم المريدون.

٤ – ظهور أول شاعر صوفى (الكيزانى)[٤] وأول فرقة صوفية مسماة (الكيزانية) نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن الكيزانى فيقول عنه ابن خلكان "ابن الكيزانى الشاعر المشهور كان زاهدًا ورعًا، وبمصر طائفة ينسبون إليه ويعتقدون مقالته، وله ديوان شعر أكثره في الزهد"[٥]، وكان يتجه في أشعاره الصوفية اتجاه الزاهدين البكائين الذين كانوا يقوم زهدهم على الخوف والبكاء، كما كان له اتجاهٌ في الحب الإلهي لم يُعرف في مصر من قبله، وأعجب المصريون بمذهبه واتجاهه، فتمذهب بمذهبه الكثير وانتشرت أشعاره وديوانه[٦]، وبذلك

---

(١) الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أبى الفضل عبد الله ابن بشرى معروف بابن الجوهرى الزاهد العابد توفى فى (٥٢٨ هـ/ ١١٣٤م) (المقريزى) تقى الدين أحمد: اتعاظ الحنف: أخبار الأئمة الفاطميين الحنفاء، تحقيق محمد حلمى، جـ٣، مجلس الشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٥١.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفى، جـ ٣، ص ١٣١ ؛ الخطط، ج ٢، ص٥٨٠، ٥٨١، ولم نتوصل لترجمة أبو اسحاق.

(٣) (الشعرانى) إبي المواهب عبد الوهاب أحمد ت ٧٩٣ هـ: لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار المسمي الطبقات الكبري، جـ١، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص٢١٨. وعمرو بن عثمان القرشى من أكابر مشايخ مصر صاحب كرامات وأحد العلماء المصنفين وأفتى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل مات بمصر سنة (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م) وقد جاوز السبعين الشعراني: الطبقات، ج١،ص ٢١٨ : ٢٢٠.

(٤) الكيزانى نسبة إلى صناعة الكوز من فضلاء المادة السادسة من عباد الفسطاط الملازمين للقرافة وجبل المقطم وكان مذهبه الاعتزال توفى (٥٦٢ هـ/ ١١٦٧م) ودفن عند قبر الإمام الشافعى ثم نقل إلى سفح المقطم بقرب الحوض المعروف بأم مودود بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٦٧، ابن سعيد: المغرب، ص٩٥.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص٤٦١، ص٤٦٢. والسبكى: طبقات، جـ٦، ص٩٠.

(٦) (الأصبهانى) عماد الدين الكاتب ت ٥٩٧ هـ: جريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق أحمد أمين، شوقى ضيف، إحسان عباس، جـ٢، جـ٢، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٨: ٢٣ كان مذهبه يقوم على التجسيم وخالف به أهل السنة الذين مذهبهم التنزية وأن الله ليس كمثله شيء، والإسماعيلية مذهب يقوم على التجريد فينفون عن الله كل صفاته لأنه فاعل هذه الصفات و كل شيء.

يكون الكيزانى أول شاعر صوفي ظهر في أواخر العصر الفاطمي كان له مريدون أوجدوا فرقة صوفية عرفت بالكيزانية، وبالرغم من ذلك كله فإننا عاجزون عن التحدث عن اتجاهات الصوفية في مصر الفاطمية لقلة النصوص التي تحدثنا عن آرائهم وفلسفتهم، وذلك لأن المصريين شغلوا طوال العصر الفاطمي بالدعوة الشيعية الإسماعيلية التي كان يدعو لها الحاكمون.[١]

خامسًا: حياة العُباد في عهد الدولة الأيوبية (٥٦٩-٦٤٨هـ/ ١١٧٤-١٢٥٠م):

يعتبر صلاح الدين الأيوبى[٢] المؤسس الأول للدولة الأيوبية في مصر، والايوبيون أكراد الأصل والجنس من بلدة دوين وهي من آخر حدود أذربيجان[٣]، وتقع الدولة الأيوبية في مصر من الناحية الزمنية بين دولتين هما الدولة الفاطمية والدولة المملوكية ولكن الدولة الأيوبية أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها، إذ ولدت الدولة الأيوبية في وقت كان الصليبيون ببلاد الشام أشد ما يكونون قوة وعنفًا، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس في الشام فحسب بل أيضًا في مصر والحجاز[٤]، ولما توفي صلاح الدين الأيوبى تولى السلطنة الأيوبية ابنه الملك الأفضل نور الدين على واستقر بدمشق، بينما توزعت أقاليم الدولة الأيوبية على أفراد الأسرة الأيوبية وكانت مصر من نصيب الملك العزيز عثمان، وعندما انتقل الحكم من الفاطميين الشيعة إلى الأيوبين السُنة، كان القضاء على أثار المذهب الشيعي هو أول ما عهد إليه صلاح الدين وخلفاؤه، ولم يكتفوا بإنشاء المدارس السنية بل رأوا أن يحاربوا المذهب الشيعي بنفس سلاحه، ونعي بذلك التصوف السني[٥]، فساهم سلاطين بني أيوب بطريقة مباشرة وغير مباشرة في جذب تيار التصوف السني القادم من الشرق السلجوقي عن طريق جذب الصوفية الوافدين، بتهيئة أماكن للمتعبدين والزهاد لتكون مركزًا لهم وخاصة وسط القاهرة، فجعل صلاح الدين دار سعيد السعداء إلى الفرق الصوفية الواردة من الشرق، كما وضع أول نظام رئاسي

---

(١) محمد كامل حسين: بين التشبع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبين والمماليك، جـ١، المجلد ١٦، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٤، ص٥٢.

(٢) أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية ولد سنة (٥٣٢ هـ/ ١١٣٧م) بقلعة تكريت وتوفى (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣م) ودفن بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالى الكلاسة شمال جامع دمشق سنة (٥٩٢ هـ/ ١١٩٦م)، وحرر الكثير من البلدان العربية من الغزو الصليبى من أكرمه الله بفتح بيت المقدس وتسلمها في ليلة الإسراء والمعراج سنة (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م) وكان عادلاً عابدًا كريمًا زاهدًا عندما مات لم يخلف إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً، (بن شداد) بهاء الدين أبو المحاسن ت ٦٣٢ هـ: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٤، ص٢٩: ٧١، ١٣٥، ٣٦٣.

(٣) عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٧، ص٧٥.

(٤) حمدى عبد المنعم حسين: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٩٤.

(٥) سعيدعبد الفتاح عاشور: مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص١١٥. والملك الأفضل أبو الحسن على نور الدين الابن الأكبر لصلاح الدين وولى عهده ولد بمصر (٥٦٥ هـ/ ١١٧٠م) ونفى نفسه (٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥م)، ودفن بتربته بظاهر حلب ابن خلكان:وفيات الأعيان، جـ٣، ص٤١٩ : ٤٢١، الملك العزيز =عماد الدين أبو الفتح عثمان كان نائباً عن أبيه فى مصر ولما توفى استقل بملكها بإتفاق من الأمراء ولد بالقاهرة سنة (٥٦٧ هـ/ ١١٧١م) وتوفى بها (٥٩٥ هـ/ ١١٩٩م)، ابن خلكان فيات الأعيان، جـ٣، ص٥٥١: ٥٥٣.

للطرق الصفوية عندما منح لشخيها لقب شيخ الشيوخ[١]. فيقول المقريزي "عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمس مائة وولى عليهم شيخًا، ووقف عليهم بُستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، وقيسارية الشرب بالقاهرة، وناحية دهمرو من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارًا فما دونهما كانت للفقراء، ولا يتعرض لها الديوان السلطاني، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب للصوفية في كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا وبنى لهم حمامًا بجوارهم وكانت أول خانكاة عُملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية" ونعت شخيها بـ شيخ الشيوخ"[٢]وكان صلاح الدين صوفيًا يُحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماع ويجلس حتى يفرغ الفقير من الرقص والسماع، فكان يبجلهم واتخذ كثيرًا منهم في حروبه ضد الصليبيين فكانوا يحشدون همم الناس للجهاد على المنابر واشتركوا مع الجنود فى حروبهم، واستقدم ثلثمائة من أكابر الصوفية من مناطق بعيدة من العالم الإسلامي لتوثيق الصلات بهم، والاستعانة بتأثير الصوفية على المجتمع لمكانتهم لتهدئة الحال فى النزاع بين المذاهب والتقرب بينها، وجعل وظيفة شيخ الشيوخ مستقلة باختصاصاتها لا يتدخل في شئونها سلطة سياسية أو قضائية فيتولى ميراث من يتوفى من الصوفية وكل أمورهم وأصبح من ألقاب الدولة الرسمية وبلغ صاحبة من المكانة ما جعل غاية الحكام إرضاءه، فأصبح ذلك التيار الصوفي غالبًا وصار ضمن الاتجاه العقائدي، بل أصبح تيارًا رئيسيًا من تيارات الفكر الإسلامي وعرف بابن الدعوة السنية وأصبح طريقًا من طرق العبادات، معتمدًا على قواعد الشريعة الإسلامية[٣]، وهكذا ساهم صلاح الدين في ازدهار التصوف إبان العصر الأيوبي، وكذلك ساعدت البيئة المحلية المليئة بظروف سلبية عديدة فالحياة المصرية في ذلك العصر كانت تدعو إلى شيء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله والزهد في الدنيا، فالاضطرابات التي حلت بمصر بسبب الحروب الصليبية أولاً، والحروب التي كانت بين سلاطين آل أيوب بعضهم مع بعض، كل ذلك جعل المصريين وقد ألمت المحن بهم وحاقت من كل جانب، يتجهون إلى شيوخ الطرق الصوفية الذين كثروا وتشعبوا عن غيرها، وقد أصبح التصوف نظامًا رسميًا للدولة شملته بعنايتها فعم الفقير والغنى العامة والخاصة وأصبحت مصر بيئة خصبة ومركزًا للصوفية القادمين من الشرق، ومن الطرق التي أسسها شيوخها في الشرق السلجوقى وانتشرت في مصر الطريقة الرفاعية[٤] والتي أسسها في أواسط البصرة الشيخ أحمد بن الحسن بن على

---

(١) منى بدر: أثر الفن السلجوقي، ص١٣١ عرف لقب شيخ الصوفية لأول مرة فى العصر الفاطمي كما وضحنا من قبل ولكن يبدو هنا أنه أصبح من ألقاب الدولة الرسمية.

(٢) المقريزي : الخطط، ج٤، ص٧٢٨، ٧٢٩. لا نرى فرق بين ما قام به صلاح الدين وما فعله أحمد بن طولون كما سبق توضيحه حتى أن المنشأة عرفت فى وقتها بدويرة الصوفية والمقريزي عرفها بالخنقاة استشهداً بوظيفتها واستضاحها لكثرة ما لاحقها من منشآت للتصوف عرفت بالخنقاة والدويرة تصغير دارابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص٤٥٨. ودار سعيد السعداء كانت للأستاذ قنبر ويقال عنبر كانت مقابل دار الوزارة تتكون من صحن مكشوف يحيط به أربعة أواوين وخلف الإيوان الغربى عشر خلوات للصوفية. أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر الفاطمى قتل فى (٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م) المقريزي: الخطط، ج٤، ص٧٢٩،٧٢٨.

(٣) عربى محمد: الحياة الفكرية فى العصر الأيوبى فى مصر واليمن، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآثار، الآثار الإسلامية، ١٩٩١م، ص ٢٦٦: ٢٧٢.

(٤) منى بدر: أثر الفن السلجوقي، ص١٣١ : ١٣٤ عبد الله السهلى: الطرق الصوفية، الطبعة الأولى، دار كنوز أشبيلية، السعودية، ص٨١: ٨٩.

العباس المعروف بابن الرفاعي (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)[١] ونقلها إلى مصر تلميذه أبو الفتح الواسطى الذي عاش بالإسكندرية ودفن فيها(ت: ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) [٢] وانتشرت في مصر وصار لها أتباع كثيرون حتى اليوم[٣]، ومن الطرق الصوفية المؤثرة في حركة التصوف في مصر الطريقة القادرية وقد أسسها في بغداد الشيخ عبد القادر الجيلانى (٤٧٠-٥٦١هـ/ ١٠٧٧-١١٦٦م)[٤] وأيضًا الطريقة الشاذلية ومؤسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي (٥٩٣- ٦٥٦هـ/ ١١٩٧- ١٢٥٨م)[٥] وانتشرت في مصر وخاصة الإسكندرية، ومن الطرق التي تأسست في مصر الطريقة البدوية ومؤسسها الشيخ أحمد بن على بن إبراهيم (٥٩٦ – ٦٧٥هـ/ ١١٩٩-١٢٧٦م)[٦] وأسسها في في مصر بعد جلوسه مع أقطاب التصوف فى العراق ودخل مصر فى عهد السلطان الكامل حوالى سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)[٧] كما ذاع صيته الكثير من المتصوفة المصريين ومنهم عمر بن الفارض ويبقى محي الدين بن عربى أشد المتصوفة أثراً في صوفية مصر، فرأيه في وحدة الوجود هو الرأى الذي قال به أكثر متصوفة مصر وغير مصر ويقول عنه أبو العلا عفيفي ولا مبالغة في القول بأن كتاب فصوص الحكم أعظم مؤلفات ابن العربى كلها قدرًا وأعمقها غورًا وأبعدها أثرًا في تشكيل العقيدة الصوفية في عصره والأجيال التي تلته[٨]. وبذلك كان التأثير في التصوف المصري شكلاً ومضمونًا، وترتب على ازدهار التصوف ظهور عوائد جديدة في حضارة مصر تتمثل

---

(١) ولد الرفاعى بقرية حسن المعروف بأم عبيدة من أعمال واسط بالعراق (٥١٢ هـ/ ١١١٨م) ودفن بها وقبته مشهورة هاجر من مكة ونزل بالمغرب وسمى "شيخ الطائفة البطائحية" لسكنه أم عبيدة من قرى الطبائح وكان متصوفًا نسبيًّا يقول "كل الآدب منحصرة في متابعة النبي قولاً وفعلاً وحالاً وخلقًا. عامر النجار: الطرق الصوفية فى مصر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، ص٦٣: ٦٥.

(٢) الواسطى تلميذ الرفاعي وهو من مهد لطريقته في مصر وكان له أثر كبير في انتشار الطرق الصوفية في مصر وكان يلقى دروسه بمسجد العطرين ولد بالعراق وتوفى بالإسكندرية وضريحه ما زال موجودًا بالقرب من الصحابي أبي الدرداء، ويقال أيضًا أنه توفي في (٦٣٢ هـ/ ١١٣٤م) جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥ ص١٦٦.

(٣) محمد كامل حسين: بين التشبع وأداب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين والمماليك، ص٥٨، ٥٩.

(٤) الجيلانى هو أبو محمد عبد القادربن موسي بن عبد الله ويمتد نسبه إلى على بن أبى طالب اختلف في محل ولادته فقيل جيلان في شمال إيران أما الأرجح أنه ولد في جيلان جنوب العراق، استقر ببغداد وكان يعظم في مدرسته باب الأزج ودفن في روقها وكان يدعو بالسُنة والشرع فيقول "أتباع الشرع موجب لسعادة الدارين فاحذروا الخروج من دائرته". عامر النجار: الطرق الصوفية ص٧٤ ، ٧٥.

(٥) الشاذلي هو أبو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ويمتد نسبه إلى علي بن أبى طالب ولد بقرية عمارة بالمغرب ورحل إلى تونس وتصوف وتفقه بها وسكن مدينة شاذله ونسب إليها وانتقل إلى مصر عام (٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤م) وتوفى بحميثراء بصحراء عيذاب بصعيد مصر وهو في طريقه للحج، جمال الشيال، أعلام الاسكندرية ص ١٦٥، ١٦٦.

(٦) البدوى أحمد بن على بن يحيى وينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب ولد بفاس بالمغرب وتنقل بين مكة ومصر والعراق حتى جاء مصر واستقر بها سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) حتى وفاته بطنطا ولقب بالبدوى لأنه كان دائم تغطية وجهه باللثام كأهل البادية عامر النجار: الطرق الصوفية، ص ١٠٢: ١١٧.

(٧) الملك الكامل ناصر الدين محمد بن سيف الدين ابن الملك العادل استقل بحكم مصر فى (٦١٥ هـ/ ١٢١٨م م) وتوفى بدمشق (٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م) بن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص٧٩: ٩١.

(٨) ابن العربى(محى الدين) ت ٦٣٨ هـ: فصوص الحكم، تعليق أبو العلا عفيفى، جـ١، دار الكتاب العربى، بيروت، ص ٧. وهو محى محى الدين محمد بن على بن محمد ولد فى مدرسة فى الأندلس (٥٨٥ هـ/ ١١٦٤م) وتوفى فى دمشق ودفن بسفح قاسيون (٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م) المرجع نفسه، ص٦١٥.

معماريًّا في بناء الخنقاوات، وبالرغم من ذلك لم يخلف الأيوبيون إلا خنقاه واحدة هي سعيد السعداء [١]. وإداريًّا أصبحت وظيفة شيخ الشيوخ من الوظائف الرسمية ولا تسند إلا إلى أكبر رجال الدولة مقامًا، وأما من الناحية الاجتماعية،فقد انتشرت حلقات الذكر والتي كان يحضرها صلاح الدين بنفسه ويشارك فيها بعض أفراد دولته، من أجمل عوائد القاهرة فيس هذا العصر حضور الناس من كل أنحاء مصر إلى القاهرة يوم الجمعة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء كي تحصل لهم البركة والخير فبعد أن أبطل صلاح الدين صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وأبقاها فى جامع الحاكم، أمر أن يتوجه صوفية خانقاة سعيد السعداء إلى تأدية فريضة الجمعة فيه، وكانوا يخرجون في موكب له روعة وجلال يتقدمهم شيخ شيوخ الخانقاة وبين يديه خُدام الربعة الشريفة، وقد حملت على رأس أكبرهم والصوفية يمشون بسكون حتى يصلون إلى مقلوحة تعرف بمقلوحة البسلمة على يسار الداخل من المسجد فيصلون ويقرأون القرآن ويدعون لصلاح الدين ولواقف الجامع وسائر المسلمين ثم يرجعون بموكبهم إلى الخانقاة فكان بمثابة الدعاية الملموسة للفكر الصوفي[٢]، ويقول ابن جبير عن صوفية هذا العصر "الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أِسباب المعايش وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان.. وهم على طريقة شريفة، وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة[٣].

ومن هذا العرض لسوابق الزهد فى مصر وبحث الزهد في العصور الإسلامية المتلاحقة يتضح أنه لما جاء الإسلام كان الجو الديني الروحاني والزهدي مهيئًا لاستقباله بروح إيجابية تألفه ولا تنكره،وأنه وجد بمصر قبل سنة (١٩٩ هـ/ ٨١٤م) طائفة من الصوفية لها قائد وزعيم،كمانستطيع أن نستنتج أن حركة الزهد التي عرفتها مصر في صدر تاريخها الإسلامي لم تلبث وتحولت إلى تيار صوفي إصلاحي تجاوز نطاق الزهد والعبادة وشدة العناية بأمر الدين إلى التدخل في شئون المجتمع والتوجيه الفعلي لمجريات الأمور والأحداث فيه، وبلغوا من القوة ما مكنهم من الاستيلاء على مدينة كبيرة كالإسكندرية وعينوا قائدهم واليًا عليها، بل اشتطوا في تدخلهم إلي رفض تعيين الوالي الجديد على البلد والذي كان أخو الخليفة العباسي وولى عهده، وبذلك نستطيع أن نصحح خطأ أجمع عليه كل الباحثين في التصوف الإسلامي وهو أن التصوف الجمعي[٤] لم ينشأ في مصر قبل النصف الثاني من القرن (٦هـ/ (٦هـ/ ١٢م)،كما يمكننا القولان أحمد بن طولون الراعى الأول لفكرة منشآت العباد في مصر و أن الصوفية في

---

(١) منى محمد بدر: آثر الفن السلجوقي، ص ١٣٦؛ دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس فى مصر العصر الأيوبى والمملوكى، مطبعة حسان، ص٦٠.

(٢) حسن عبد الوهاب: مساجد ومشاهد الدولة الفاطمية، العدد السادس، مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦١، ص١٠١.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ٢٥٦. ابتدى ابن جبير رحلته سنة (٥٧٨ هـ / ١١٨٢م) واستغرقت عامين وثلاثة أشهر، رحلة بن جبير ،ص٧٧ ، ٣٢٠.

(٤) توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبان العصر العثماني، مكتبة الآداب، ص٣٧. ويقول التصوف الجمعى لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وأيضاً دولت عبد الكريم: معاهد تزكية النفوس في مصر في العصرين الأيوبى والمملوكى، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٨٠، ص٣٦ وتقول وفي القرن السادس الهجري أصبح للصوفية تأثير على المجتمع وظهر نشاطهم في النواحى العامة.

مصر استخدموا المساجد في بداية الأمر للسكن وإقامة شعائرهم وأن النظرية القائمة على ربط وجود التصوف الجمعي بمصر بوجود الخنقاوات نظرية خاطئة فقد خُصص للمتصوفة فى مصر مساجد كانت هي المقر الرئيسى (مساجد الإعتكاف)، كما نستخلص مما سبق أن صوفية مصر في العصر الفاطمي اتخذوا لهم مكانًا بالقرافة وبنوا مصاطب خاصة بهم أشبه بما عرف فيما بعد بالخانقاة، وبدأوا فى ممارسة العبادة عن طريق الحركات الراقصة فيما عرف بالتصوف العملى، تحت رعاية الفاطميين، فبناء مصطبة تحت قصر الخليفة الفاطمى بالقرافة وذهابه لرؤيتهم، يدل على ما تمتع به الصوفية من اهتمام، كما انتشرت الطرق التى كان لها شيوخ يتعلم على أيديهم المريدون وسميت واحدة منها بالكيزانية نسبة إلى مؤسسها المعروف بابن الكيزانى أول شاعر صوفى بمصر، وإن أثبتنا فيما سبق معتمدين على إشارات عابرة وشذرات متناثرة وردت فى المصادر التاريخية أن التصوف والفرق الصوفية وجدت فى مصر منذ عهد الولاة، فإننا نستطيع أن نؤكد من خلال النصوص الفاطمية أن التصوف تطور واكتملت جميع أوجهه من منشآت خاصة بهم، وتصوف عملى وانتشار الطرق، وظهور الشعر الصوفى وذلك خلافاً لما ذهب إليه الباحثين[1]، عن التصوف فى مصر ويمكنا القول أن العصر الأيوبى شهد شرارة انطلاق التصوف، فتطور من مجرد ظاهرة دينية إلى ظاهرة اجتماعية وانتقل إلى مرحلة جديدة تحول فيها من شكل من أشكال العبادة إلى منهج وطريقة ومذهبًا فكريًّا ترعاه الدولة بشكل رسمي.

زينب فوزي عبد الحي إبراهيم دويدار

(١) تذكر مني بدر أن ما عرفته مصر فى القرون الخامسة الأولى كانت حالات زهد فردية وأن عباد الشيعة كانوا أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف، وكان عددهم قليلاً لا يشكل ظاهرة دينية تفرض على المعمارين أن ينشئوا عمائر مخصصة لهم ولم يكن لهم صفة رسمية فى الدولة، وأن العصر الفاطمى لم يعرف الطرق الصوفية وإن التصوف السنى الممتد من الشرق السلجوقي لم يتمكن من الوجود في العصر الفاطمي بسبب طبيعة الحياة الاجتماعية والدينية التي غلب عليها الاحتفالات واللهو. منى محمد بدر: أثر الفن السلجوقي على الحضارة والفن في العصريين الأيوبي والمملوكي في مصر، جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، ١٩٩١م، ص٣٨، ١٣٠. وهو ما أثبتنا عدم صحته.